الفصل السابع

اخسَرْ لتربح

«كنّا نعرف أن ليس لدينا ما نخسره سوى حياتنا المجرَّدة البادية العوار».

فيكتور فرانكل[1]

كان من دأب توم ودانا لارسن الفوز دوماً، فهي صفةٌ اعتاداها. كان توم يمتهن الدعايةَ الإعلانية في منطقة دِنْفر، فيقوم بحملاتٍ دعائيةٍ ناجحة لمحلات ماكدونالد وسيفوي ومطار دنفر الدولي. واستأثر باهتمام عالَم الإعلان على وجه الخصوص بما حقَّقه من نجاح في حملته الإعلانية المسمّاة «أناسٌ أسوياء مثلنا أيضاً»، التي قام بها لمصلحة متحف دنفر للفنون، ونال على نجاحه فيها جائزةَ اتحاد دنفر للدعاية الإعلانية.

أما دانا لارسن، زوجة توم، فكانت ترأس لجانَ اختيار الموظفين للشركات العاملة في مجال المحاسبة والتقانة العالية في منطقة دنفر؛ فقد رسَّخت قدمَها كخبيرةٍ في هذا المضمار، تنتقي الموظفين وتسيِّر الأعمالَ وفقاً لإرادتها ومشيئتها.

إلا أن الزوجين لم يكونا سعيدَيْن، حتى إن فرحة توم بالفوز بالجائزة لم تدم طويلاً.

قال توم: «دخلتُ المكتبَ يوم الاثنين، وتحلَّقنا جميعاً المائدةَ للبحث في شؤون الحسابات، كما هي عادتنا كلَّ غِبٍّ يوم اثنين. لم يتغيَّر أيٌّ شيء، وأدركتُ أن لا شيء سوف يتغيَّر أبداً».

ترك توم هذا العمل، ومال إلى عملٍ آخر حرٍّ في مجال الإعلان أيضاً، ثم كتبَ روايةً، في حين بقيت دانا في عملها. مع ذلك ظلاّ يشعران أن ثمة شيئاً مفقوداً في حياتهما.

ذهبا مرةً إلى الكنيسة، وظنّا أنهما قد وجدا الجوابَ عندما سمعا برغبة القسّ في ابتعاث شخصٍ مدةَ سنةٍ للعمل في كنيسةٍ صغيرةٍ في جمهورية الدومينيكان، فتطوَّعا لهذا العمل وقُبِلا به.

تركت دانا عملها، وانتقلا إلى جمهورية الدومينيكان. كانت مهاراتهما في اللغة الإسبانية متواضعة، وظروف المعيشة هناك قاسية، فكانا مريضَيْن معظم الوقت، إضافةً إلى أن الكنيسة التي خَدَما فيها كانت مفرطة التقيُّد بحرفيَّة القانون، فلم يكونا سعيدين هناك.

يقول توم: «في وسطٍ كهذا كنتُ أخرج أحياناً مع دانا إلى مطار سانتو دومينغو، ونجلس في مطعم ويندي المكيَّف، لنرقب ـ بلهفةٍ عارمة ـ المسافرين وهم يركبون الطائرات المتَّجهة إلى الولايات المتحدة».

عادا إلى أرض الوطن بعد انقضاء مدة الإيفاد متسائلَيْن: ما كان أغناهما عن فكرة السفر إلى جمهورية الدومينيكان أصلاً. وبعد عودتهما بنحو شهرين ضربَ إعصارُ جورج منطقةَ الكاريبِي ودمَّر ذاتَ المنطقة التي عاشا فيها.

يقول توم، وقد استفزَّه الانفعال: «تابعتُ أخبارَ الإعصار، وبادرتُ من فوري إلى الاتصال بمن عرفتُ في الدومينيكان. واستولى عليَّ شعورٌ عارمٌ بالرغبة في مساعدتهم بطريقةٍ ما، وكأنهم أهلٌ لي».

سارعت كنيسة دنفر إلى تمويل المعونات الضرورية العاجلة لبعض السكان المنكوبين. لكن توم كان يشعر بأنه يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك بحكم إقامته هناك، إلا أنه لم يكن يعرف تماماً ماذا يمكنه أن يفعل.

واتفق أن التقى يوماً بأحد العلماء المحلّيين، الذي قال إنه عاكفٌ على إجراء تجارب ودراساتٍ للوقوف على طريقةٍ منخفضة الكلفة ومجديةٍ اقتصادياً لتنقية المياه، خدمةً لشعب جمهورية الدومينيكان، علماً بأن مستلزمات هذا المشروع تشتمل على استعمال الكلور والترشيح الكربوني والتناضح المعكوس والضوء فوق البنفسجي، وأن المشروع قابلٌ للتطبيق على شبكة المياه في الجمهورية.

أجابه توم: «كنتُ أدرك مدى الحاجة إلى ماءٍ نظيف هناك حتى قبل وقوع الإعصار، إلا أنني لم أُلقِ بالاً لهذا الأمر آنذاك. تفضَّلْ؛ كيف يمكنني أن أسهم؟ إنني ضابطٌ إنكليزيٌّ سابق!»

وهكذا نَقَلَ توم وصديقُه الباحث النظامَ إلى جمهورية الدومينيكان، ونفَّذاه في الكنيسة التي عملَ فيها لارسن وزوجه قبل سنة. وقام الصديقان باختباره عدة مرات ليستوثقا من عدم وجود أية ملوِّثات. وعندما شاعَ خبرُ توفُّر مياهٍ نقيَّةٍ في الكنيسة هُرِعَ الناسُ إليها، وما لبثت الكنيسةُ أن أصبحت مركزاً لتوزيع ألف غالونٍ من الماء النقيّ يومياً.

وإذ كان للناس في السابق موقفٌ سلبيٌّ من هذه الكنيسة بسبب تصلُّبها في تطبيق القانون ونزعتها الانتقائية، فإن توفُّر الماء النقيّ قد غيَّر الموقفَ كلَّه، بل جعل الكنيسةَ تتطلَّع إلى الخروج من قوقعتها.

تأمَّلَ توم في قضية المياه في هذا البلد؛ فإن سنواتٍ من الإهمال كفيلةٌ بأن تجعل شبكةَ المياه في الجمهورية غير مأمونة. ثم إن البنية التحتية للتمديدات والأنابيب التي تغذّي المدن الكبرى باتت معطوبةً وغير كتيمة. فإذا أضيفَ إلى ذلك فساد منظومة الصرف الصحّي، ازداد احتمالُ تعرُّض المياه للتلوُّث الذي قد يتسرَّب عبر طبقات الأرض. أما في الضواحي والمناطق المتطرِّفة فالحال أسوأ، فضلاً عمّا أحدثه إعصارُ جورج نفسُه من تلفٍ للمنظومات تحت الأرضية.

تؤكِّد منظماتُ الصحة الدوليةُ أن مياه الشرب الملوَّثة هي السبب الرئيسي في تفشّي أمراضٍ مُعْدِيةٍ تفضي غالباً إلى الوفاة. وقد لوحظَ أن معظم الناس هناك مصابون بنوعٍ من الطفيليات المعوية التي قد تنتهي بالمصاب إلى الوفاة، أو على الأقل بالتسبُّب بمشكلاتٍ صحيةٍ مزمنةٍ وعسيرة العلاج. يقول أحد الأطباء في هذا الصدد: «لو تلقَّى المصابُ بهذه الطفيليات المعوية العلاجَ في يومه لانتكَسَ في غده».

تحدَّثَ توم إلى القائمين على الكنيسة في جمهورية الدومينيكان عن إمكان المساعدة في إنشاء منظوماتٍ أخرى إضافيةٍ لتنقية المياه هناك إذا هم نجحوا في الحصول على دعمٍ ماليٍّ لهذا الغرض. ثم

إنه عاد إلى كنيسة دنفر، وبحثَ المسألةَ مع علية القوم فيها. وسرعان ما انطلق في مشروع منظمةٍ غير ربحيَّةٍ سُمِّيت «المنظمة الدولية لمعالجة المياه».

باع توم ودانا بيتهما في إيفرغرين ـ كولورادو، وانتقلا إلى مسكنٍ أصغر منه في منطقة غولدن، حيث حاولا تطويرَ المنظمة وجمعَ بعض المال لها، وتمكَّنا بسرعة من الحصول على دعمٍ ماليٍّ من الأفراد في المقام الأول، واستأجرا عدداً من العاملين المحلّيين إضافةً إلى اثنين أمريكيَّيْن يكافحان بحثاً عن مكانٍ لهما في هذا العالَم. أما توم نفسه فقد عمل على تطوير نظامٍ للصيانة أقل كلفة، وفي جمع التبرعات للمنظمة. وأما دانا فاهتمَّت بالجانب اللوجستي والتمويلي، وتنظيم المجموعة باعتبارها منظمةً غير ربحية.

وفي غضون أشهر بدأت منظمةُ معالجة المياه بإقامة منظوماتٍ في كنائس جمهورية الدومينيكان بمعدَّل منظومةٍ كلَّ شهر. وقد نجمَ عن ذلك، كما قال توم، «إقامة جسورٍ بين الكنائس والأحياء، فقد كان ظنّي بها دوماً أن تكون وسيطَ وئامٍ على الصعيدين المادي والاجتماعي».

وتشهد معظم المواقع اليوم تدفُّقاً متواصلاً من الناس على مراكز التوزيع في الكنائس؛ إذ يحضر الناسُ حاملين أباريق تتسع لخمسة غالونات، أو ما تيسَّر لهم من الأوعية. ويُذكر أن إحدى الكنائس قد وزَّعت أكثر من 60,000 غالون من الماء النقي في أحد الشهور الأولى من عملها. وصرَّحت سيدةٌ من أهالي بعض الأحياء في موقعٍ من

مواقع المنظمة بأن كلَّ الناس في قريتها يحصلون على حاجتهم من المياه من الكنيسة. وقالت: «لم يكن بإمكاننا الحصول على ماءٍ مأمونٍ من قبل، فكانت صحة أطفالنا معتلَّةً دوماً. أما اليوم فهم يشربون من هذا الماء النظيف، وعادوا أصحّاء».

يرى توم أن مشروع المياه هذا هو ثمرة من ثمرات معاناته الشخصية طوال العام الذي قضاه وزوجته في جمهورية الدومينيكان كمتطوّعَيْن للكنيسة. قال: «إننا في خضمّ مشروعٍ أكبر منّا بكثير». وراح يسرد المهن السابقة التي زاولها العاملون في مشروعه: «انظر إلينا، فمنّا وكيل الإعلان، والمستشار في البرمجيات، والخياط، والنادل، وبائع السيارات المستعملة. فماذا نحن فاعلون لكي ننجح في مسعانا؟».

وسرعان ما توسعَّت منظمةُ معالجة المياه لتشمل المكسيك وغواتيمالا وأجزاء أخرى من أمريكا اللاتينية. ويُزمَع إقامة منظومات تنقيةٍ للمياه في إفريقية في أقرب وقتٍ ممكن.

يقول توم: «حُلمي أن يتمكَّن الفقيرُ حيثما كان من الدخول إلى أية كنيسةٍ في قرية، والحصول على الماء النقيّ بيُسر».

يجدر بالذكر أن منظمة معالجة المياه انطلقت بادئ الأمر من رغبةٍ في جعل الحياة أكثر معنى، وأفضت تلك الرغبة إلى إخفاقٍ ظاهري؛ فعندما ظنَّ توم ودانا أنهما قد وجدا الجواب لم تسعفهما الظروف. وفي أثناء إقامتهما الأولى في جمهورية الدومينيكان كانا ـ روحياً ـ

على الحال الذي وَصَفَه روبرت بيرسيغ في كتابه Zen and the Art of Motorcycle Maintenance: «هذه هي لحظة الصفر من الوعي؛ عندما يشعر المرء أنه عاجزٌ ومهزوم ومعطَّل؛ إنها تجربةٌ بائسةٌ مثيرةٌ للرثاء من الناحية العاطفية. إنك تخسر الوقت وتشعر أنك مسلوب الحيلة لا تدري ما تفعل، وأن عليك أن تخجل من نفسك»[2].

وباختصار، فقد شَعَرا أنهما حاولا وأخفقا، وهذا هو بيتُ القصيد.

على أن خدمة الآخرين لا تنتهي دوماً بنجاحٍ كبير؛ فمشروع معالجة المياه وتوفيرها قد لا يتوسَّع أكثر مما هو عليه اليوم، بل قد لا يستمر أكثر من بضع سنواتٍ قادمة. إلا أن الزوجين لارسن بذلا طاقتهما في هذا المسعى مع أن فرص النجاح لم تكن مؤاتية، فكانت جهودهما تبدو عقيمةً في بعض الأحيان. إلا أنهما لم يكونا يسعيان إلى تحقيق نتيجة بقدر ما كانا يستجيبان لحاجةٍ داخليةٍ تدفعهما إلى خدمة الناس، حتى في أحلك الظروف.

منذ بضع سنوات تسنّى لي خوض معركة انتخابات الكونغرس الأمريكي، وبدا المناخُ مناسباً لصوتٍ معتدل، واعتقدتُ أن لديَّ ما أستطيع أن أسهم به للحوار في واشنطن، استناداً إلى خبرتي في تصريف شؤون أعمالي الخاصة وإدارة مؤسسةٍ غير حكومية ناجحة. ونظرتُ إلى ميدان السياسة باعتباره ضرباً آخر للخدمة أقدِّمه لعددٍ كبيرٍ من الناس. شجَّعني مستشاريَّ وسارع أعضاءُ الحملة إلى عقد اجتماع.

لعلّي كنتُ ساذجاً عندما ظننتُ أن بمقدوري خوضَ حملةٍ انتخابية أتناول فيها مختلف المسائل وخبرتي الشخصية. ولم يقع في خَلَدي قطُّ أن عليَّ ـ لكي أفوز بمنافسةٍ كهذه ـ أن أصوِّر خصومي للناس بأسوأ صورة، وأن يفعل بي خصومي مثل ذلك. لذلك أخفقتُ حتى في الانتخابات التمهيدية.

أحسستُ بخيبة الأمل عندما خسرتُ، إلا أنني لم آسَف على خوض التجربة؛ فقد وجدتُ أنها تستحق ما بُذل فيها من جهدٍ ومال لأنها علَّمتْني الكثير، إذ ما الفائدة التي يمكن أن أجنيها لو لم أحاول؟

تعلَّمتُ أن الديمقراطية جديرةٌ بأن يُبذل في سبيل تحقيقها الجهد، وكذلك السعي إلى إسماع صوتك والانتصار لمبادئك، بقطع النظر عن النتيجة مهما كانت. يصدِّق هذا ما قاله الفيلسوف الكبير/لاعب الهوكي وين غريتسكي: «محالٌ أن يدخل الهدفَ من الرميات سوى التي تقصد تسجيلها!»

والديمقراطية مدارها المشاركة، لا الربح والخسارة. ومع أنني قابلتُ، في غضون تجربتي القصيرة في عالَم السياسة، أشخاصاً مخادعين ووصوليين لا خلاق لهم، فقد التقيتُ أيضاً أشخاصاً طيبين من ذوي النوايا الحسنة. وقد أظهر لي عملي في مؤسسة «من القلب إلى القلب» أن ثمة كثيرين في الحكومة يملكون رغبةً صادقةً في خدمة الآخرين.

هذا ولا تقاس الحياةُ بما يصيب المرءُ فيها من نجاحاتٍ أو إخفاقات، بل تقاس بالمحاولات والمساعي الصادقة. فقد أنفق توماس إديسون زمناً طويلاً يحاول صنع مصباحٍ كهربائي، واستغرق ذلك منه سنواتٍ من التجربة والخطأ والمحاولات الفاشلة. إلا أنه لم يكن يرى في محاولاته إخفاقاً. «إنني لم أخفق؛ حسبي أنني تمكَّنتُ من اكتشاف 10,000 من الطرائق التي لا غَناء فيها!»[3] ومن المعلوم أن اختراع المصباح الكهربائي عمليةٌ انطوت على مراحل عديدة.

ويصحّ ذلك على كل ما نقوم به من محاولات، ولاسيما في مجال خدمة الآخرين؛ فقد جرَّبنا في مؤسسة «من القلب إلى القلب» أنماطاً مختلفةً من البرامج التي كان منها بنكُ الحبوب الغذائية الذي يمثِّل مشروعاً تعاونياً لخدمة المناطق التي تعاني الجوع في شتى أنحاء العالَم، وبرنامجٌ لتقديم الخدمات للمشردين الذين لا مأوى لهم، إضافةً إلى عشراتٍ من المشروعات الأخرى. على أن بعض هذه المشروعات لم يحالفه النجاح، ومع ذلك فإنني لا أرى فيها إخفاقاً، بل إنها تستحق ما بُذل فيها من جهودٍ ونفقات، لأنها ساعدت على تمييز الغثّ من السَّمين، وتوضيح ما أحسنّا فيه صنعاً وما لم نحسن.

تؤدي مؤسسةُ «من القلب إلى القلب» دور وسيطٍ يمثّل صلةَ الوصل بين المتطوّعين والأشخاص الذين يحتاجون إليهم، محلّياً وخارجياً، عن طريق توزيع الأدوية والإمدادات الطبية في المقام الأول، وذلك هو أفضل ما تؤديه المؤسسةُ من خدمات.

يقول روبرت ف. كنيدي: «إن مَنْ يجرؤ على الفشل بحكمة هو الذي يستطيع أن يحقِّق إنجازاً عظيماً»[4]. لقد انطوت تجربةُ ترشيحي لعضوية الكونغرس على مخاطرةٍ كبرى على الصعيدين الشخصي والمالي في آن معاً. وقد فعلتُ ما علمتُ أنه يتعيَّن عليَّ فعله، أيّاً كانت النتيجة. وكانت تلك رحلةً غنيَّةً تستوجب مني الحمدَ والشكر.

ومما قد يثير الاستغراب أن عدم نجاح تجربتي لدخول الكونغرس تَبِعَه مباشرةً صدورُ الأمر لي بالالتحاق بوحدتي العسكرية الاحتياطية. وفي غضون أسابيع كنتُ أخدم في مستشفى في كوسوفو، وذلك ما أفضى إلى لقائي مع عائلة شابو. فانظر كيف تهيَّأت لي الظروف لكي أعمل في اختصاصي الطبي الذي يلائمني لأخفِّف من آلام الآخرين.

يقول المنتج السينمائي وودي آلن: «إذا لم تخفق بين حينٍ وآخر، فذلك مشيرٌ إلى أنك لا تحقِّق شيئاً متميِّزاً في حياتك»[5]. إن سرَّ النجاح يكمن في المحاولة، لا في النتيجة، ومن المفيد عندما نقوم على خدمة الآخرين أن نخرج عن روتين حياتنا لنرى ما قد يحدث. فإذا التزمنا بما هو مؤكَّد، ضمنّا أن شيئاً جديداً لن يحدث؛ إن علينا أن نكون مستعدِّين لقبول الفشل فينةً بعد فينة.

إن النتائج غير المتوقَّعة قد تؤدي إلى استجلاء الهدف المنشود استجلاءً تاماً. وقد وقع لنا ذلك عندما أقمنا الجسرَ الجوّي الأول من المساعدات إلى الصين، فتوفَّرت الأدويةُ ولم تتوفَّر طائرة الشحن. من

هنا فإن نجاحنا السابق في الوصول إلى مناطق نائية لم تكن لتعني شيئاً ذا بال. وهكذا أخفقنا في إيصال الدواء، إلا أن إخفاقنا ساقَ لنا فكرةً جديدة: ماذا لو أخذنا طاقماً طبّياً إلى الصين بدلاً من الدواء؟

عَمِلْنا بالتعاون مع بعض المؤسسات الطبيّة لإتاحة شيءٍ من التثقيف الطبيّ في الصين، فقمنا بتدريب الأطباء الصينيين على أساليب الجراحة الحديثة في طب العيون، وتلقَّينا منهم تدريباً في مجال الطب التقليدي الصيني. وعدنا في العام التالي لنقدّم لهم دوراتٍ تدريبيةً في الإنعاش الولادي، فأسهمنا بذلك في إنقاذ حياة أكثر من 40,000 طفل، وذلك بعدما أصبح الأطباءُ الصينيون قادرين على تطبيق الأساليب التي أخذوها عنّا.

والحقيقة أن ما أُنقذ ليس هو حياة أطفالٍ أسوياء، بل أطفال وُلدوا بآفاتٍ خَلْقية تتعذَّر معها حياتهم مع أهليهم، وإنما في مؤسساتٍ خاصة لأنهم مصابون بالشلل الدماغي وما شابهه من حالات العجز الجسدي الحادّة. على أن كلَّ كميّات الدواء التي ملأتْ طائرةَ الشحن لم تكن لتنقذ حياة الأطفال، فتعيَّن علينا تعديل أساليب خدمتنا للناس بسبب إخفاق خطتنا الأصلية المرسومة. لكن هذا «الإخفاق» بحدّ ذاته أتاح المجال لأمرٍ آخر أكثر فائدة أن يحدث.

فلدينا اليوم طائرات شركة فيدكس تتَّجه إلى الصين بانتظام، محمَّلةً بالأدوية، وكذلك بالطواقم الطبيّة. ويُذكر أن دوراتنا التدريبية في الطب الإسعافي قد نجحت نجاحاً حملَ المشافي الصينية على اعتمادها في دورة الألعاب الأولمبية عندما تُقام في بكين.

والواقع أن الإخفاق هو ما تحكم أنت بأنه إخفاق، وربما يكون أحياناً نقطةَ انطلاقٍ إلى ما هو أفضل. صحيحٌ أن الخسارة لا تنقلب دوماً إلى ربح، ولا الإخفاق إلى نجاح، إلا أن ذلك جزءٌ من المحاولة، وجزءٌ من الرحلة. اسأل إذا شئتَ فريقَ ريد سوكس للبايسبول ومشجِّعيه لتعلم أنهم انتظروا من سنة 1918 إلى سنة 2004 حتى تمكنوا من الفوز على منافسهم الأكبر فريق نيويورك يانكيز، ثم انتقلوا للفوز ببطولة الدوري العالمي!

يحكي هوارد كتلر في كتابه المشترك مع الدالاي لاما The Art of Happiness قصة جوزيف، أحد زبائنه، الذي أصاب مالاً كثيراً في أثناء عهد طفرة البناء في ولاية أريزونا، فأصبح مليونيراً كبيراً. ثم وقع - في ثمانينيات القرن الماضي - أكبرُ انهيارٍ في تجارة العقارات في تاريخ أيرزونا، فَفَقَدَ جوزيف كلَّ ما يملك وأعلن إفلاسه. وكان إفلاسه عبئاً على استمرار حياته الزوجية، فانفصل عن زوجته بعد خمسةٍ وعشرين عاماً من الزواج. مالَ بعدها إلى معاقرة الخمر، ثم استطاع أخيراً الإقلاع عنها بمساعدةٍ من مؤسسة Alcoholics Anonymous. وتمثَّل العلاج - في جزءٍ منه - في أن يمسي هو نفسه راعياً لحملةٍ تأخذ بأيدي المدمنين إلى الخلاص.

أدرك جوزيف متعةَ مساعدة الآخرين بعد تحوُّله من رجلٍ فاحش الثراء إلى شخصٍ متواضع الإمكانات المالية، فراح يستغل معرفته العملية في مدّ يد العون للأفراد والمؤسسات مالياً. وقد أعربَ لـ كتلر عن زهده بالمال والغنى قائلاً: «لم أعد أرغب في امتلاك مثل ذلك المال،

وأفضِّل أن أقضي عمري متطوِّعاً مع مجموعات عمل، أو أن أقدِّم خدماتٍ مباشِرةً للناس على خير وجه، وبكلّ ما أوتيتُ من طاقة. إنني الآن أجد في يومٍ واحدٍ سعادةً غامرةً تفوق ما كنتُ أجده في شهرٍ كاملٍ أيام كنتُ أكنِز المال، وأنا اليوم أسعد من أي وقتٍ مضى من حياتي!»(6).

ولعل في تشارلز كولسن مثالاً نموذجياً لشخصٍ يغيِّر من طبيعة نظرته إلى الإخفاق والنجاح؛ فقد أدّى ضلوعُه في فضيحة ووترغيت [1972] إلى سَجنه، وإلى استقالة الرئيس ريتشارد نيكسن آنذاك. وفي برنامجٍ تلفزيوني عاد بالذاكرة إلى تلك الحادثة، يوجِّه المذيعُ المحنَّك مايك واليس سؤاله إلى كولسن: «عزيزي، كيف تنظر اليوم إلى ووترغيت؟»

أجاب كولسن: «أشكر الله على فضيحة ووترغيت».

نظر واليس إليه ذاهلاً، وراح يحك رأسه لبعض الوقت.

تابع كولسن: «لقد علَّمتني ووترغيت أعظم دروس حياتي. وما أصدق تعاليم السيد المسيح إذ يقول: مَنْ سعى إلى إنقاذ حياته خسرَها، ومَنْ فقدها من أجلي وجدَها».

بدأ بحثُ كولسن عن المعنى في الحياة منذ أن كان طفلاً في أثناء حقبة الفتور الاقتصادي، عندما رأى أشخاصاً جياعاً ينتظرون أرتالاً لأخذ جرايات الخبز. حدَّثته نفسُه بأن «أهمَّ ما أطمح إليه أن أتمكّن من الالتحاق بالجامعة، فإنَّ لديَّ ذلك الشعور الكبير بالحاجة إلى الأمن والوصول إلى معنىً للحياة عن طريق بلوغ مستوىً تعليميٍّ رفيع وعملٍ محترم»، علماً بأن أحداً من عائلته لم ينل تعليماً جامعياً.

درسَ في جامعة براون بمنحةٍ دراسية، والتحق بعد التخرُّج بسلاح البحرية ليشارك في الحرب الكورية، فتذكَّر حالما ارتدى بزَّته ما كان حدَّثَ به نفسَه: «هذا هو معنى حياتي والأمن الذي أنشده متمثِّلاً بكوني ضابطاً في البحرية».

وبعد الحرب التحق بكلية الحقوق، وذَكَرَ حديثَه لنفسه: «سأجد لنفسي الأمن ولحياتي المعنى والهدف كمحامٍ». ثم أسَّسَ شركةً للمحاماة نَمَتْ وتطوَّرت بسرعة، وأصاب منها نجاحاً عريضاً. ثم دخلَ معتركَ السياسة ليكون أصغرَ الموظَّفين سنّاً في مجلس الشيوخ الأمريكي. وعاد ليؤكِّد لنفسِه: «سأجد معنىً لحياتي وهدفي في ميدانَي القانون والسياسة». وغدا مستشاراً شخصياً لرئيس الولايات المتحدة ولمّا يبلغ التاسعة والثلاثين، وكان مكتبه مجاوراً لمكتب الرئيس.

وعندما أعيد انتخاب الرئيس نيكسن سنة 1972 رأى كولسن أن الوقت قد حان للعودة إلى مزاولة عملٍ خاص. قال: «شعرتُ أنني بدأتُ أُستهلَك؛ فقد بات العملُ مرهقاً يتعيَّن عليَّ فيه أن أكون تحت الطلب دوماً، وأن أردَّ على مكالمات الرئيس في كل الأوقات، إضافة إلى تزايد الأزمات السياسية».

وفي أثناء وجوده في السجن بسبب دوره في فضيحة ووترغيت، انتابت كولسن صحوةٌ روحيةٌ أتاحت له الاطلاع على مؤلَّفات الكاتب الروسي الاسكندر سولجنتسين، الذي كَتَبَ من داخل معسكرٍ سوفييتيٍّ للعمل الإلزامي: «بوركتَ أيها السجن؛ بوركتَ إذ كنتَ جزءاً من حياتي؛ فقد أدركتُ وأنا هناك أتمدَّد على القشِّ النتن أن غاية الحياة لا تتمثَّل في الغنى أو النجاح، بل بنضوج الروح».

يقول كولسن: «حقاً إن نضوج الروح هو غاية الحياة»[7]

تمثَّل التعبيرُ العمليُّ لنضوج روح كولسن نتيجةً لهذا «الإخفاق» في انطلاقه في خدمة الآخرين، عن طريق إنشاء مؤسسةٍ أسهمت في تغيير مسار حياة الآلاف من السجناء، وفي إصلاح أوضاع السجون حول العالم.

إن ما حقَّقه كولسن من نجاحٍ في البداية ليس هو ما يَعتدُّ به اليوم؛ فلا ثقافته ولا مكانته العسكرية أو الوظيفية أو الاجتماعية أو السياسية هي في الواقع ما أكسب حياتَه المعنى الحقيقي، بل إن الإخفاق هو الذي صار ذا معنى عندما شرعَ كولسن في خدمة الآخر بدلاً من خدمة نفسه.

وهكذا نرى أن توم ودانا لارسن، وجوزيف زبون هوارد كتلر، وتشارلز كولسن، وأنا شخصياً، يجمعنا عاملٌ مشترك؛ فكلٌّ منا جرَّب شيئاً تبيَّن أنه مختلفٌ عن توقُّعاتنا. ربما يقول البعضُ إننا أخفقنا.

لكن هل أخفقنا فعلاً؟ عندما تتحول الخسارة إلى دافعٍ لخدمة الناس، فتلك لعمري رحلةٌ تُبهِجُ وتُسعِد.

في كتاب The Art of Happiness يقول المؤلِّفان إن صنائع من قبيل خدمة الآخرين بقطع النظر عن طبيعة الظروف، قد تقلب مسار حياتنا رأساً على عقب. «إن أداءَك واجباتِك (ولو بطريقةٍ ميكانيكيةٍ تعوزها الحماسة) والانخراط المتكرِّر في سلوكٍ إيجابي قد يفضي في آخر المطاف إلى تغيُّرٍ داخليّ». وفي ذلك دلالات ضمنية هامة إلى أسلوب نظرتنا إلى الإخفاق.

ويقـولان أيضـاً: «إذا بدأنا بأيسـر الأعـمـال، بإلزام أنفـسنا مـثـلاً بمسـاعدة الآخـرين، حـتى وإن كانت مـشـاعرنا لا تميل إلى الاهتمـام كثيراً بما نقوم به، فقد نكتشف فيما بعدُ أن تحـوُّلاً في داخلنا يحدث، وأننا نتمثَّل شيئاً فشيئاً مشاعر عاطفة تجاه الآخرين»(8).

إن إخفاقنا إذن في تحقيق نتيجةٍ معيَّنةٍ على النحو الذي يرقى إلى تطلُّعاتنا لا يُعَدُّ خسـارةً على الإطلاق، ذلك لأن خدمة الآخرين لا يمكن أن تكون مقيَّدةً بنتائج متوقعة. ولربما تحقَّقت الغاياتُ والأهداف في أمـاكن غيـر مـتـوقـعـة؛ ألم «يخـفق» توم ودانا لارسن في جـمـهـورية الدومـينيكان بادئ الأمـر؟ ومع ذلك فـقـد كـان أهل تلك البـلاد هم الرابحين كلما أحسّوا أنهم بحاجة إلى شربةٍ من ماءٍ نقيّ.